الشيخ محمد جواد مغنية

من هو خليفة شرف الدين ؟

•

أتى على المقدس شرف الدين حين من الدهر وهو من رؤساء العلماء في جبل عامل ، ثم أصبح بعد وفاة زملائه الكبار – عليه وعليهم الرحمة والرضوان – الرئيس الأول وحده لا شريك له . أما اليوم وبعد أن لبى هذا الجليل نداء ربه فيرى البعض أنه «الخليفة» دون غيره ،وآخر أنه أحد أطراف الشبهة المحصورة ، وثالث أنه الفرد المردد بين تعيينه بالذات والتخيير بينه وبين غيره (١)

وطريقة الإمامية في اختيار الشخص لهذا المنصب الخطير تخالف ما عليه سائر الطوائف فهو لا يعين بمرسوم من مصدر رسمي ، ولا بالانتخاب من فئة معينة ، أما المراسيم فهي عندهم من اختصاص المعصوم الذي لا يجترح السيئات،ولا يتأثر بالشفاعات ، أما الانتخاب فالشيعة تخافه ، لا تثق به من يوم السقيفة والشورى ، حيث صغى رجل لضغنه ، ومال الآخر لصهره مع هن وهن ، وازدادوا بالانتخاب كفراً ، ومنه نفوراً حين شاهدوا نتائجه الوخيمة في هذا البلد وغيره من البلدان ، لذا يتركون الانتخاب إلى الطبيعة ، إلى مؤهلات الشخص وصفاته ، وإحساس الناس وشعورهم ، ودائماً يأتي هذا الإحساس العام ، وكأنه وحي من السماء ، إذ لم يعرف في عهد من العهود – كما أعلم – أن كلمة الطائفة بجميع أفرادها وهيئاتها اتفقت على ضلالة ، وبدون سبب مشروع .

إن الفرد مهما ملك من الأساليب فلا يستطيع أن يخدع شعباً بأكمله أو طائفة بأسرها باسم الدين أو الوطنية .

ومهما يكن فإن الإمامية يعتبرون في المرجع الديني شروطاً قاسية جداً وصفات لا تتوافر إلا لمن رحمه الله سبحانه وشمله بعنايته ، فأول شرط عندهم في خليفة الرسول الأعظم أن يكون معصوماً عن الخطأ قبل الخلافة وحينها ، وأول شرط في وكيل الخليفة والنائب عنه أن

---

(١) مثل الفقهاء للشبهة المحصورة برجل أراد الوضوء،وليس لديه إلا اناءان يعلم أن أحدهما طاهر والآخر نجس ، ولم يميز الطاهر من النجس . قالوا : يجتنب الاثنين ويتوضأ ، ومثلوا للشبهة غير المحصورة بإناء نجس بين الف اناء . قالوا : يتوضأ من أحدها ويصلي . ومثلوا للتعيين والتخيير بعالمين يدور الامر بين ان يكونا متساويين في العلم او ان احدهما اعلم فيجب الاخذ بقول محتمل الأعلمية . لأنه مجز على كل حال .

يكون تقياً عادلا ، يعرف الحق ويعمل به ، ولا تأخذه فيه لومة لائم، بل قال المرجع الأعلى السيد محسن الحكيم في مستمسك العروة ج ١ ص٣٤ الطبعة الثانية «المرتكز عند فقهاء الشيعة قدح المعصية في هذا المنصب على نحو لا تجدي عندهم التوبة والندم ، فالعدالة عندهم مرتبة عالية لا تزاحم ولا تغلب . والإنصاف أنه يصعب جداً بقاء العدالة للمرجع العام في الفتوى كما يتفق ذلك في كل عصر لواحد أو لجماعة إذا لم تكن بمرتبة قوية عالية ذات مراتب سامية فإن ذلك مزلة الأقدام ومخطرة الرجال العظام » ويتفرع على شرط العدالة والورع أمران :

الأول : أن يتبع الرئيس سياسة الحياد وعدم الانحياز لهذا أو ذاك ، ولو تظاهر عليه المبطلون ، بل لو أدى تصلبه في جنب الله إلى تنحيته عن منصب الرياسة.

الثاني : أن يقوّم الأشياء بما تستحق ، ويقيس كلا بما هو فيه ، فلا يرفع من شأن الدعاة المؤيدين، والأذناب التابعين ، ويجحد فضل الذين لا يطبلون له ويزمرون ، أو قل : لا يسير على طريق المتزعمين المحترفين ، وغيرهم من الذين لا يعملون إلا للربح والكسب . إن الشيعة ينظرون إلى صاحب هذا المنصب على أنه يستوحي أقواله وأعماله من مبادىء القرآن الكريم وأخلاق الرسول الأمين ﷺ وينهج منهج الإمام (ع) في التجرد والإخلاص .

وقد روى الثقاة أن الخريث بن راشد قال للإمام (ع) : لن أشهد معك الصلاة ، ولن أمتثل لك أمراً ، وليس لك علي من سلطان . فقال له الإمام : لك ذلك ، على شريطة أن لا تعتدي على أحد ، ولا تسيء إلى إنسان ، وكان يعطيه نصيبه من الفيء أسوة بسائر الناس فلا يحابي موالياً ، ولا يحرم معاديا ، ترك الإمام الحرية للخريث مع ما له عليه من حق الولاية وما في يده من القوة ليعطي أرباب المناصب درسا في إنكار الذات ، والترفع عن كل تهمة تشين . ولا أحد أولى بالاقتداء بسيد الأوصياء من شيعته ، وبخاصة رجال الدين الذين جاوروا مقامه المقدس سنوات طوالا ، وبصورة أخص الرئيس الذي يبث تعاليمه ويتكلم باسمه .

ومرة ثانية أقول : إن الشيعة يتركون التصفية والغربلة للأيام ، فهي وحدها الكفيلة باختيار الأصلح والأصدق والأنفع.

أجل إننا نفكر ونقدر ونرشح هـذا دون ذاك ، ولكن على سبيل التنبؤ لا الاختيار ، والتخمين لا التعيين ، لقد قاوم شرف الدين من قاومه ، وأبى أن يعترف بمكانته ومنزلته ، بادىء ذي بدء ، ولكنه استسلم في النهاية لقوة الحق ، وخضع لمنطق الواقع الذي لا معدى عنه « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »

بيروت محمد جواد مغنية

العرفان، أيار ١٩٥٨، صفحة ٧٣٨،٧٣٩